



الصراع الحضاري بين الأنا والأخر

في رواية «عمر يظهر في القدس» لنجيب الكيلاني

— بوحفص بوجمعة - الجزائر —

«بيئة الرواية»:

إن البيئة التي تكتنف أحداث رواية «عمر يظهر في القدس» هي أرض الأنبياء فلسطين، لكنها اليوم استبدلت بهم قتلة الأنبياء والأبرياء، وأصبحت مصطرع حضارتين: حضارة عربية إسلامية أصيلة، لكنها مهزومة، وحضارة غربية ملطخة باليهودية، غير أنها متسلطة. في هذه البيئة الهجين «بقية من سكينة تحت شجرة وارفة أوى إلى ظلها فدائي أثر المؤلف أن يفل اسمه»^(١). وفيها كثير من الصخب والزحام والضجيج، ترسله سيارات الأرض وطائرات السماء. فيها نساء سوافر، حواسر، يسرحن بين الرجال متبرجات، وخمر تشرب جهرة، وفواحش تؤتى علانية، يرى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعين الدهشة ذلك كله، فيقول: «عادت الجاهلية كأعنف وأخبث ما يمكن»^(٢). ويرى فتى يهوديا يقبل صاحبه، فتثور ثأثرته، ويقول: «الآن عرفت سبب انتصار اليهود عليكم، الخوف يلد الرذيلة، والهزيمة تمسخ



عمر، وتطور الميل إلى الحب، والحب إلى الإيمان بالإسلام، وعدم اكتراثها باضطهاد الموساد وغضب الوالدين، وتهافت أجهزة الإعلام المسعورة للتجار بقصتها وفجيرة فتاها (إيلي) بحبه القديم، منذ أن ظهر هذا العربي الذي لا يعرف الناس حقيقته. ومع ذلك أحبته راشيل، وأمنت بدينه إيماناً أغضب المؤسسة العسكرية الحاكمة، فدبرت قتلها خفية، وموتها الغامض الذي أعلن أنه موت مقدر لا اغتيال مدبر، بغض الحياة إلى (إيلي)، وحبب إليه اللحاق بصاحبته، «وفي مساء اليوم الذي دفنت فيه راشيل وجد (إيلي) منتحراً في حجرة نومه»^(٥).



د. نجيب الكيلاني

«موضوع القصة وهدفها»

إن موضوع رواية «عمر يظهر في القدس» هو معالجة النتائج التي نجمت عن نكسة حزيران سنة ١٩٦٧م، وهدفها هو بعث الروح في أوصال الأمة العربية الإسلامية بعدما أذهلتها الهزيمة. فمن المعروف أن نكبة ١٩٤٨م كانت ضربة شديدة الوطء، غير أن نكسة سنة ١٩٦٧م كانت أدهى وأعتى، لأن الأولى وقعت والبلاد العربية الإسلامية

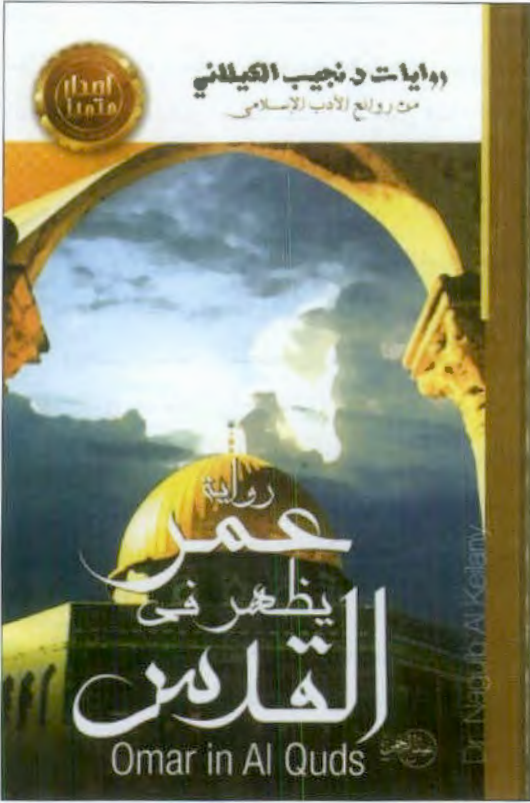
ضعفاء الإيمان. إن من يتعود التقاط الفتات من موائد الأغنياء تسحره كلماتهم وفكرهم وسلوكهم، ويحاول أن يقلدهم، وفي التقليد الأعمى فناء العقل والروح، هكذا يتحول السادة إلى عبيد»^(٦).

ومن يتفحص عناصر البيئة، وبراعة الكاتب في رسمها، وتطويعها لأغراضه الفكرية والفنية يدرك أنها لم تتحجم في بناء الرواية، بل وضعت تحت سمع عمر وبصره لتفجر سخطة، وتحمله على رفض الغناء الذي حملته أمواج الغزو، وألقته على شواطئ فلسطين. وتدعوه إلى نفض الغبار والأدران التي ألقته على أرضنا كلها رياح الغرب الهوجاء لطمس جذورنا واقتلاعنا من منابتنا الأصيلة.

«أحداثها»

إن أبرز أحداث القصة ظهور عمر الفجائي أمام فدائي يأوي إلى ظل شجرة، على نحو عجيب يشبه المعجزة أو الكرامة الربانية، وتعليل ظهوره الغريب هذا بعلّة غيبية مستمدة من قدرة الله على إحياء الموتى، ودخول عمر القدس بلا جواز سفر، وسجنه مع الفدائي الذي تجلّى له إثر انفجارات هي بتدبيرهما، وتبرئتهما بعد ذلك، ودخول عمر المستشفى لاستئصال الزائدة الدودية، واختلاف الأطباء المسلمين في حقيقة هذا الوافد عليهم من التاريخ السحيق؛ فوهيب عبد الله المادي الجدلي الرافض للغيب ينكر الحادثة، وعبد الوهاب السعداوي الصادق الإيمان بالله وبالغيب يقول لعمر: «يا حبيب رسول الله! كنت دائماً أقول: نحن في حاجة إلى رجل مثلك، إلى الإيمان الممتزج بالنصر»^(٧). وآخر الأحداث البارزة اختفاء عمر على نحو مفاجئ أيضاً حير أطباء المستشفى مؤمنهم وجاحدهم.

تضاف إلى هذه الأحداث المحورية حادثة طريفة، وهي ميل الفتاة اليهودية (راشيل) إلى



كلها أو أغلبها كانت تحت وطأة الاحتلال، أما الثانية فقد وقعت بعد استقلال الشعوب العربية الإسلامية، وتجهيز الجيوش وظهور زعماء وخطباء جعلوا مهمهم وهدفهم تحرير فلسطين، لذلك حينما وقعت الواقعة، وهوت الآمال المحلقة من سماء الكبرياء إلى حضيض الإخفاق؛ صعق الناس وذهلوا وغشيهم اليأس، ولما أفاقوا من الصدمة وجدوا الساسة يحللون ويعللون، وراح الأدباء يكتبون، والشعراء يؤنّبون^(١).

أما في رواية نجيب الكيلاني «عمر يظهر في القدس» فقد أرجع الكاتب سبب النكسة إلى غلطة كبيرة ومعصية جاحدة، تتمثلان في تنكر الفروع للأصول، وعقوق الأحفاد للأجداد، فكان الهدف الأول والأخير من القصة ربط الأمة بجذورها في العقيدة والتفكير، ثم في البناء والمسلك والعمل. ومتى آمن المسلم بأنه يعبد الله الذي لا شريك له، المتفرد بالقدره على الخلق، أحس أن قوته مستمدة من قوة الله. وهذا الإحساس النابع من الإيمان يحمله على الثقة المطلقة بأن نصر الله وعد إلهي، وبأن ضعف المسلمين وهزيمتهم هما ضعف إيمان لا ضعف أبدان، وهزيمة أرواح لا هزيمة سلاح. يقول عمر للفدائي: «أنتم لا تعرفون الله، (إن تنصروا الله ينصركم)». قول لا يتبدل لأنه كلمات الحق الأعلى^(٢). وأسوأ ما يسوء عمر سلوك علماء المسلمين الذين دجنهم الاحتلال، وروضهم حكام الأرض حتى تحولوا إلى السنة تنطق بما يرضي الحكام الصغار، ولو أغضبوا أحكم الحاكمين. فليس من المستغرب إذن أن يزدري عمر هؤلاء العلماء، وأن يكبر المجاهدين، ولأن الجهاد هو المطلب الأول للأمة، وليس الأوراد، لذلك يقول عمر في إطرء الفدائيين: «هم بقية الخير في دنياكم،

قد يكون هؤلاء المسلمين الذين لم أجد لهم ريحا في الشوارع والمساجد»^(٣). فيجيبه الفدائي: «هم يعيشون هناك... في الأغوار وعلى قمم الجبال.. قد باعوا أنفسهم إلى الله..»^(٤).

ولقد ساء عمر أن يرى مرافقه الفلسطيني يأكل فيكثر، فأخذ يهذبه قائلاً: «إن ريع ما أكلته يكفيك.. ألا تلاحظ أنه إذا امتلأت معدتك فإن أعضاءك تسترخي، فتلوذ بالكسل، وتخلد إلى النوم.. وأنتم تحاربون»^(٥). وغضب لما رأى بأن المسلمين أصيبوا بعدوى المجاهرة بالفواحش.

وقد عجب من فرقة المجتمع الواحد وتشرذمه، ومن انقسام الدولة الإسلامية إلى دول، مع أن كل مسوغات التوحيد والالتحام تدعوها إلى الوثام، فيقول: «لم لا تحطمون هذه القيود والسدود؟

جميعا شخصيات من العرب واليهود لعبت أدوارا ثانوية. والجدير بالذكر أن شخصية (راشيل) تعد من أبرز الشخصيات بعد شخصية عمر، وهي الفتاة اليهودية الشرقية اللعوب في أول القصة، المؤمنة بالإسلام في آخرها، فقد سحرها عمر بصدقته وعمقه وصراحته وجراته، فأعرضت عن عشيقها (إيلي) المستهتر، ومالت إلى عمر، ثم انقلب الميل العارض إلى دائم، وتحولت عاطفتها من حب الأنثى للرجولة المكتملة، إلى البحث عن الطمأنينة الروحية في ظلال الإيمان بالإسلام، وبذلك تصبح ضحية من ضحايا الموساد، فيقول عنها ضابط الأمن الكبير لرفاقه: «راشيل جرثومة فساد في مجتمعنا الإسرائيلي، لا خلاص منها إلا بالموت... أجل.. الموت... هؤلاء اليهود الشرقيون حقراء...»^(١١). وبعد موتها تخادع (الموساد) اليهود، وتجعل منها بطلة من أبطال إسرائيل، «ومن الغريب أن تصدر عشرات الكتب والقصائد والمسرحيات عن راشيل، وجميع الكتاب يؤكدون أنها كانت فتاة إسرائيل المخلصة المضحية، التي حمت شعبها من أخطار خارجية مؤكدة، ... كما أطلق اسمها على إحدى المستعمرات المزعم إنشاؤها في هضبة الجولان»^(١٢).

«حضارة الأنا/المسلم»

إن الحديث عن حضارة الأنا -المسلم الحقيقي- الإسلامية في رواية نجيب الكيلاني لا ينبغي أن يتصوره القارئ على أنه من قبيل الذي حفظه سجل التاريخ وطواه، إنما حضارة الإسلام معاصرة دائما ودوما، وعناصر القوة والأصالة في هذه الحضارة مستمدة من الدين الإسلامي الحنيف، والملاحظ أن الحضارة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فرضت نفسها عقليا ووجدانيا على الشعوب التي احتوتها، مما أدى بالكاتب إلى

امتزجوا، تأخوا، ودوسوا الأسلاك الشائكة التي تتصل بينكم، واحفروا قبرا لكل بادرة من بوادر التفرقة.»^(١٠). ولاشك في أن أعظم المسوغات وأعرقها وحدة العقيدة، وأن أحدثها وأقربها إلى الواقع اغتصاب فلسطين التي فرط بها المسلمون في العصر الحديث.

«شخصياتها»

لقد سميت هذه القصة باسم أبرز شخصية فيها وهي شخصية الفاروق عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- من أعظم من أنجب الإسلام، وما يدل على ذلك أن الكاتب لم يقرن اسم (عمر) بما يعينه، فلم يذكر في عنوان القصة (الفاروق) ولا (أمير المؤمنين) ولا (ابن الخطاب)، ولم يضيف على اسمه نعتا من النعوت يميزه عن غيره ممن يحملون هذا الاسم، وقد ينازعونه شرف هذا العنوان كعمر بن عبد العزيز أو عمر المختار. فقد ذكر اسم (عمر) وأغفل ما سوى هذا اللفظ من الألقاب والنعوت والأنساب لتقته بأن هذا اللفظ كاف ليكون عنوانا على القصة، فيعرف القراء من خلاله المضمون من هذه الكلمة... وتتطوي القصة على مجموعة من الشخصيات الأخرى العربية واليهودية، ومن هذه الشخصيات الفدائي الفلسطيني الذي تجلى له عمر، وقد أغفل المؤلف اسمه عمدا، ليكون رمزا للحركة الفدائية العاملة بصدق في السر. ومنها الطبيب المتشبع بالفكر الماركسي وهيب عبد الله، والطبيب المسلم عبد الوهاب السعداوي، وهما يمثلان التناقضات السياسية والاجتماعية في تركيب المجتمع العربي.

ومن أبرز الشخصيات اليهودية الشابان العاشقان (إيلي) و(راشيل)، ومجموعة من رجال المخابرات الصهيونية (الموساد)، يضاف إلى هؤلاء



أبي الشهيد، وتقويم للشهور العربية والإفرنجية، وخريطة لفلسطين الماضي، ولافتة مكتوب عليها بخط كبير (الله)، وساعة حائط»^(١٥).

ومن الانتقادات التي وجهها الأنا الحقيقي (عمر ابن الخطاب) رضي الله عنه إلى الأنا المزيف (الراوي) ما تعلق بالتناقض بين المظهر والجوهر في حياة المسلمين المعاصرين، فيقول: «مساجدكم ضخمة، يروع الناظر رونقها ونظافتها، ومنابرهم عالية مزينة بالزخارف والألوان الوقورة، والثريات المدلاة من السقف تفوق ثريات قصور كسرى وقيصرو.. وازدحام العباد يروع البصر، وتجيدون تجويد القرآن... لكنكم في الحضيض... تناقض مذهل!!».

ومع ذلك فعمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يخفي إعجابه ببعض مظاهر حضارة هذا الزمن؛ فهو لا يرفض أن يتقدم ويرتقي تفكير المسلم بفضل العلم، ويسخر ذلك في تطوير وسائل الحياة، «وأبدى عمر سروره لهذا الاختراع العجيب، وازداد عجبه حينما علم أن آلة الطباعة تستطيع أن تخرج عشرات الألوف من النسخ في وقت قصير». ومع ذلك فهو يشترط أن يكون هذا الرقي أساسه الأول والأخير العقيدة الإسلامية وعليه تكون الهوية الحضارية الإسلامية، أساسا لشخصية المسلم الحقيقي، وعاملا مساعدا على الاستقلال وعدم الذوبان في الآخر، وهو ما أكده أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حينما سأله الجندي الإسرائيلي عن هويته:

- «وأنت أين هويتك؟ فأجابته:

- بلا هوية.. أنا معروف.. لا بد أن أمر..».

كما أبدى عمر رضي الله عنه بعض الملاحظات على جانب آخر من حياة المسلمين، وهو جانب

استظهار هذه الفترة من عصر النبوة والصحابة خاصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولهذا نجد أن أول مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية هو العقيدة، ومنها تستمد اسمها «فقد حقق الإسلام فقرة نوعية وتحولا فكريا جذريا في جانب آخر من جوانب الفكر العربي والإنساني، مستوعبا ما قبله مضيفا إليه، وذلك في ميدان التوحيد، فقد دفع الإسلام بفكرة الوحدة الإلهية والتتزيه الإلهي خطوات واسعة إلى الأمام»^(١٦).

فها هو الأنا (المسلم الحقيقي) (الفائب) عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يحث على التمسك بالفرائض وتعاليم الدين الإسلامي التي تنظم العلاقات بين الناس، وتحفظ حقوق وواجبات الأفراد، ويظهر ذلك من خلال تأنيبه للأنا (الراوي) أو المسلم المزيف (الحاضر) على عدم رده السلام الذي يعد فرضا في الإسلام فيقول: «فرض عليك أن ترد السلام على من يقرؤك السلام»^(١٧).

وتزخر الرواية بضروب من النقد الحضاري لواقع العالم الإسلامي في حضارة الأنا، وإن كانت هي أيضا حضارة إسلامية، غير أن الإشكالية تكمن في معالم شخصية المسلم المزيف الذي أصبح لا يختلف عن اليهودي والمسيحي في سلوكه وأخلاقه وتصوراته، حيث إنه صار ينظر للإسلام على أنه مجموعة من التقاليد جوفاء يقوم بها دون وعي، حتى مفهومه للحرية والعدالة قد تغير بفعل التشويه والتخدير والقهر الذي يمارسه ضده اليهودي بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وعلى الرغم من كل هذا فلم يفقد المسلم المزيف (الحاضر) الأمل في تحرره يوما من الأيام، ويظهر ذلك صراحة فيما نشاهده في بيت الأنا المزيف (الراوي) وبالضبط في حجرته «وعلى حيطانه المطلية بالجنس الأزرق الخفيف عدد من الصور أهمها صورة

سروره، مبينا بأنه إنسان بسيط عاش لربه دائما وأبدا، مؤديا لرسالته، منسجما مع أبناء جلدته، حيث يقول في تواضع: «حاشا لله، لم أكن امرأ بالغ السمو والعفة، كنت بشرا بكل ما تحمله كلمة بشر من معان، وكان هناك عشرات الألوف من المسلمين لا يَقلُّون عن عمر ورعا وتقوى إن لم يفوقوه شجاعة وعدلا وإيماناً»^(٢١).



المعاملات حيث عاب عليهم صفات منها: التبذير والإسراف، «وأبدى إعجابه بالنظافة والماء الوافر، وشرب جرعات منه، ولم يخف رضاه عن مذاقه المستساغ، لكنه انتقد بشدة ذلك التبذير في استعمال الماء»^(١٦). وعاب عليهم أيضا البذخ والزخارف في العمران ولو كان ذلك في بيوت الله خاصة وهو في حرب مع العدو الصهيوني، لأن على المسلم أن يعطي الأمور أولويتها في الترتيب، «وتحسس السجاد الفاخر، ونظر إلى الثريات الكبيرة، واللمبات الكهربائية الضخمة، بدا له أن ذلك نوع من البذخ لا مبرر له، وخاصة في وقت حرب كهذا الوقت»^(١٧). ولم تعجبه سلوكيات بعض المصلين داخل المسجد، مثل تخطي الرقاب، وشق الصفوف، وعدم الاكتراث لصدى الكلمة، «ودهش إذ رأى البعض لا يكثر لكلماته، ويصر على تخطي الرقاب»^(١٨). غير أن عمر رضي الله عنه أبدى إعجابا شديدا بكثرة المصلين وتوافدهم على المساجد.

أما الشيء الذي هزَّ عمر رضي الله عنه في تأثر فهو سماع القرآن الكريم دون تحريف ولا تبديل، «وكان تأثره ممزوجا بسعادة كبرى فهو يسمع القرآن دون تحريف ولا تبديل، كما نزل على سيد الأنام محمد بن عبد الله»^(١٩).

فالكلمة عند الرسول صلى الله عليه وسلم كانت بمثابة القوة الموجهة للحياة، ومعين المسلم على تطهير النفس من الجبن والخوف، وتعميده الشجاعة والصرامة، ويظهر هذا في الرواية من خلال موقف الآخر / اليهودي المتمثل في الفتاة (راشيل) التي أثرت فيها الكلمة، حيث تعلق بعمر رضي الله عنه لصراحته وصرامته وجراته، وأعرضت عن فتاها المغرور (إيلي). ويظهر ذلك بوضوح في قولها

إن شخصية عمر رضي الله عنه اكتملت في مدرسة النبوة، خلف وراءه تاريخا عريقا يشهد له بالعدل والصرامة، وعن ذلك يقول الفدائي: «تحدثت مئات الكتب عن شجاعتك، وعدلك وزهدك وبعد نظرك، وعزوفك عن الدنيا وزيفها وبريقها، كنت أروع مثل في رحاب التاريخ..»^(٢٠). فمن خلال كلام الفدائي يدرك عمر رضي الله عنه بأن شخصه الفذ لا يزال حيا لدى الكثير، فأبدى



اليهود القدامى، «لكن أين التوراة الحقيقية؟ لقد أضاعها أحباركم، ثم مسحوا كلمات الله، واخترعوا أقوالا ما أنزلها الله، (قَوِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتَبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقِيلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)، ولم يتج الإنجيل كذلك من العبث وأهواء المنحرفين»^(٢٦). ليس هذا فحسب، بل إنهم لا يؤمنون بالتوراة إلا بما يخدم مصالحهم الشخصية الضيقة، فهذه الفتاة اليهودية (راشيل) تقول لعمر بن الخطاب رضي

للخليفة: «لا تشك في أمري، لقد ارتديت زيا يليق، أعرف أنك ممن يرفضون تبرج النساء... أيها الشيخ أنت لا تعرف مدى ما أثرته في من فضول..»^(٢٧). فتحولت عاطفتها من حب الأنثى للرجولة المكتملة إلى البحث عن طمأنينة الروح في ظلال الإيمان بالإسلام، حيث «أخذت تبكي وتتفض من بين دموعها، ثم تؤكد أنها لن تستطيع أن تعيش بعد اليوم بعيدة عن الخليفة، فهي ستسير وراءه أينما يذهب وتتعلق بأذيال ثوبه...»^(٢٨). وبعد الاضطراب

النفسي تتحول (راشيل) إلى مؤمنة بدين الإسلام، وصارت من أتباع الخليفة عمر رضي الله عنه تردد كلماته في كل مكان، «كنت لا أستطيع أن أصدق ما تقع عليه عيناى، أو تسمعه أذناى، و(راشيل) تردد الشهادتين في صدق لا شك فيه»^(٢٩). وقد سر ذلك عمر رضي الله عنه «ورأيت الرضا والفرح يكلان وجه أمير المؤمنين»^(٣٠). وفي هذا أعظم دليل على مدى تأثير الكلمة في النفس البشرية.

«حضارة الآخر/اليهودي»

الله عنه: «لا أشعر بقميد واحد من قيود الدين، كل ما يهمني من التوراة أنها تجاوزت مع آمالنا السياسية في الوطن والخلاص... وماعدا ذلك فلا أؤمن بشيء...»^(٣١). وعليه فإنه إذا لم تكن هناك عقيدة تنظم حياة هذا الآخر/اليهودي فإنه لا توجد أيضا قيم أخلاقية سوية تربط بين أفراد هذا المجتمع، وهذا ما يظهر في مشهد اليهوديين (راشيل) و(إيلي) اللذين يمارسان طقوس الحب على مرأى

لقد كان للتقدم المذهل الذي وضع في يدي الآخر إمكانية تشكيل العالم وإعادة ترتيبه بما يتناسب مع مصالحه الذاتية، ولاسيما من خلال وسائل الاتصال الحديثة التي عملت على التشكيك بأهمية القيم السائدة، بل عملت على نسفها باعتبارها قيما بالية لا تتماشى والتقدم والرقي؛ وأولى هذه القيم هي العقيدة التي يفقد إليها الآخر/اليهودي، إذ إن التوراة قد أخضعت للتحريف والتزييف من طرف



مواجهتنا، وهناك اليهودي المفترض على استعداد عجيب للحوار، وهناك أخيرا اليهودي/الصهيوني الفاعل المقنع بالقوة والتقنية والذي يعمل على تدجيننا وإهانتنا...»^(٢٩).

إن الآخر/اليهودي يشكل العدو الذي يمارس شتى صنوف القهر والاضطهاد والتعسف، هذا العدو الذي يجبر الفلسطينيين على الرحيل وترك أراضيهم وممتلكاتهم بهدف تهويد الأرض الفلسطينية وإقامة المزيد من المستوطنات فيها، وقد مارس الصهاينة جميع صنوف الضغوط على الفلسطينيين من مصادرة للأراضي، واعتقال وتعذيب وقتل وإبادة وتهجير وحصار، وهذا ما تجسده رواية «عمر يظهر في القدس»، حيث يؤكد الأنا/ الراوي هذه الحقيقة منذ بداية الرواية، فيقول: «لقد أصبحت هذه الأمور كلها بمرور الوقت أمرا طبيعيا في حياتنا، نحن جيل الضياع والأحزان، يا أماء، أيام الذل مزرعة خصبة للآلام والأحزان، وسنوات الهوان الطويلة لم تتفجر عن فجر يبدد الظلام والوجوم، وتمادى العدو في طغيانه وعيته وغروره دون أن نستطيع الثأر منه، يشعروني بعجز قاتل، ويعصف بالأحلام الخضراء...»^(٣٠).

ويمكن تلخيص موقف الأنا/ المسلم الحقيقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الآخر/ اليهودي من خلال قول الراوي حين سأل الضابط اليهودي عن موقف عمر منهم: «رأيه سيئ بالنسبة لكم وللدول العربية عموما. العالم كله في نظره يعاني من جاهلية سوداء، ويفوق في مستنقع من الإثم، ويعتوره الزيف والفساد»^(٣١).

«نظرة الآخر للأنا»

إن علاقة الأنا بالآخر تظل متجددة باستمرار، فهي تحيل إلى غزو الآخر الكافر لدار الإسلام،

من الناس دون خجل ولا حياء، وقد أبصرهما عمر رضي الله عنه فلم يعجب من ذلك لأنه يعرف طبائع اليهود وسلوكياتهم، فقال: «يهوديان؟ لم تتغير طبائعهم منذ قديم الزمان، كانوا بالأمس يستترون في بيوت الدعارة والمجون، واليوم ينشرون فسقهم علانية...»^(٣٢).

«نظرة الأنا للآخر»

إن نظرة الأنا للآخر تتضمن كثيرا من التراكمات التي يثيرها الآخر في وعينا ولا وعينا على حد سواء، وهي في مجملها تخوفات من ردود أفعال الذوات الأخرى، والتي هي أيضا لا تعدو أن تكون استجابات للمواقف التي يتعرضون لها. وقد تجسدت هذه النظرة للآخر في الأشكال الأدبية والأجناس التعبيرية كالقصة والرواية، وأدب الأطفال على وجه الخصوص؛ لذلك فإن الخطاب الروائي يشكل ميدانا خصبا يخترن كثيرا من الصور التي كونها الأنا حول الآخر أو العكس. وهذا ينطبق بشكل أساسي على الصراع العربي/الإسرائيلي بكل متناقضاته على مستوى الثقافة والاجتماع والسياسة واللغة والدين.

إن اليهود عبر تاريخهم الطويل «لم يستطيعوا تكوين كيان موحد بل ظلوا على مر الأزمان أمة متعددة العناصر، تعصف بها التبدلات والتغيرات، وتستقي من منابع ثقافية متعددة، ومختلفة، باستثناء الدين الذي يوحدتها ويجمعها منذ الشتات الأكبر في عهد موسى وهارون عليهما السلام... إلا أن كل واحد منا يحمل في ذاكرته المتجذرة صورة عن اليهودي، والتي تمارس ضغطا على وعينا ولا وعينا في الآن ذاته، ولا نستطيع التخلص من هذا الانجذاب/التنافر الذي تحدثه هذه الصورة وإن أردنا ذلك وسعينا إليه سعيًا؛ فهناك اليهودي/الإسرائيلي الذي نجده في

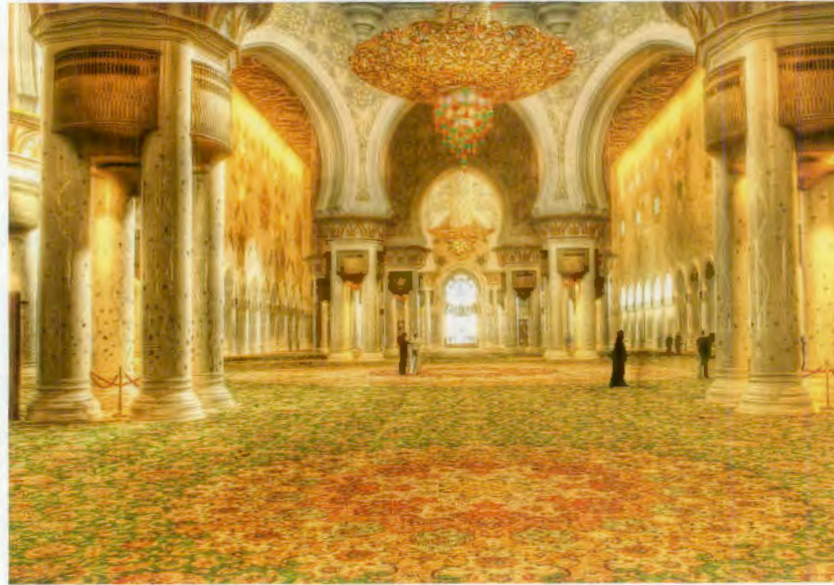


صورة ناصعة لا تدنسها قذارة اليهود، بل هي صورة جميلة يتجذب إليها الآخر نفسه، وهذا ما حصل للفتاة اليهودية (راشيل) مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الفتاة التي اختيرت أصلاً ووضعت في طريقه من أجل تغييب الحقيقة وتشويه سمعته عبر وسائل الإعلام، لكنهم لم يفلحوا، فقد انقلب السحر على الساحر كما يقال فقد تغيرت نظرة الفتاة (راشيل) إلى الخليفة، وتحولت من نظرة الاستهزاء والاستخفاف إلى الإعجاب والتقدير، وهذا بسبب بروز صفات ومعالم المسلم الحقيقي (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه من خلال تصاعد وتنامي الصراع بينه وبين اليهود، وقد اعترفت بذلك أمام صديقها اليهودي (إيلي): «كان حلو النظرة، واثق الكلمات محلقة بأفكاره كالنسر الجارح... تزييني حركاته وإشاراته، بسيطاً في ذكاء، متواضعاً في رفعة، خالياً من عقد العصر ونقائضه...»^(٣٢). وبذلك أصبحت «راشيل» الفتاة اليهودية الماجنة من أتباع الخليفة بعد أن أسلمت بين يديه مرددة

الشهادتين: «كنت لا أستطيع أن أصدق ما تقع عليه عياني، أو تسمعه أذناي، وراشيل ترتل الشهادتين في صدق لا شك فيه، ورأيت الرضا والفرح يكللان وجه أمير المؤمنين»^(٣٣).

وفي جانب آخر وعلى النقيض مما رأينا يمكن من خلال الرواية نفسها الكشف عن صورة الأنا/ المسلم الحقيقي عند رجال الدين المسيحيين، وهي صورة مخالفة لنظرة رجال السياسة: «... أما

وتمثل في الآن نفسه رد فعل الآخر واستعادته لما ضاع منه من ملك وسيادة جزاء اتساع رقعة الأنا/ الإسلامي، أو هي الاستعمار الأوروبي الحديث وما تسببه الغزو الغربي من صراع ديني وحضاري، وهو ما انتهى إلى غزو الصهيونية لفلسطين وبعض الأراضي العربية باعتبارها امتداداً للإمبريالية. فالآخر/ الغربي أو الصهيوني خاصة قد ولد قاموساً من الصور النمطية عن الإسلام والمسلمين والعرب منذ الحملة الصليبية إلى الآن لم تتغير،



على الرغم من تبدل العلاقة التي تربط بين الأنا / العربي، والآخر/ الغربي اقتصادياً وثقافياً، والمستوى الحضاري الذي تعرفه الشعوب في التعامل مع الآخر.

هذه الصورة فيها الكثير من التشويه والتشويش أساسها النظرة الاستعمارية العنصرية، وهي نظرة تهدف إلى تسويق العدوان وتبرير الدفاع عن الذات. ومع ذلك تبقى صورة المسلم الحقيقي

ولا يفهم من إيمانه غير النطق بالشهادتين، وهو الأمر الذي جعل الأنا/المسلم الحقيقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبدي استنكاره الشديد من الوضع المأساوي الذي آل إليه مسلمو هذا العصر، حيث يخاطب الراوي في أسف: «الآن عرفت سبب انتصار اليهود عليكم، ونشرهم الفجور بين ظهرانيكم، الخوف يلد الرذيلة، والهزيمة تمسخ ضعفاء الإيمان... أنتم جياع برغم رصيدكم الضخم من الزاد.. تدقون الأبواب الصلدة في بله، ولو بحثتم عن المفاتيح لتفتح أمامكم باب النعيم الأبدي»^(٢٥).

فهل يجدي هذا التائب لإيقاظ المسلم المزيف من سباته العميق ورده إلى رشده لينتبه إلى وضعه، ويواجه الغزو الذي يمارسه ضده الآخر/الصهيوني الحاقدي؟■

أحد المساووسة في كنيسة القيامة فقد علق: (أنا أحترم عمر، ولا أشك في نظافته، إنني لا أتفق معه في العقيدة لكنه إنسان كبير رفض طلب البطريق حينما كان بالكنيسة وقت الأذان، أبى أن يصلي بها احتراماً لمشاعرنا، وخرج ليصلي خارجها... كان شديداً في تسامح، وكان يعامل المرأة طوال تاريخه بحزم وعدل.. لم يفكر في يوم من الأيام أن يبيع آخرته أو يفرط في دينه.. شيء متفق عليه... كذب الصحف لا يحتاج لتفنيد لكل ذي عينين»^(٢٤).

هذه بوجه عام نظرة الآخر/اليهودي إلى الأنا/المسلم الحقيقي الغائب والمتمثل في شخصية عمر ابن الخطاب رضي الله عنه الذي صار يهدد وجوده على خلاف الأنا/المسلم المزيف الحاضر والمتمثل في شخصية الراوي، وهو الذي لا يعرف من الإسلام غير المظاهر والشعائر والطقوس،

الهوامش:

١ الكيلاني، نجيب، عمر يظهر في القدس، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١ م، ص ٩.

٢ المصدر نفسه، ص ٢٤.

٣ المصدر نفسه، ص ٢٥.

٤ المصدر نفسه، ص ١٠٥.

٥ المصدر نفسه، ص ٢٦١.

٦ المصدر نفسه، ص ١٧.

٧ المصدر نفسه، ص ١٠٠.

٨ المصدر نفسه، ص ٤٠.

٩ المصدر نفسه، ص ٥٥-٥٦.

١٠ المصدر نفسه، ص ٧٣.

١١ المصدر نفسه، ص ٢٦١.

١٢ المصدر نفسه، ص ٢٦٢.

١٣ زيادة، معن، معالم على طريق

تحديث الفكر العربي، عالم

المعرفة، المجلس الوطني للثقافة

والفنون والآداب، الكويت، العدد

١١٥ ذو القعدة ١٤٠٧ هـ، يوليو/

تموز ١٩٨٧م، ص ٩٧.

١٤ الكيلاني، نجيب، عمر يظهر في

القدس، ص ١٠.

١٥ المصدر نفسه، ص ٤٨-٤٩.

١٦ المصدر نفسه، ص ٣٢.

١٧ المصدر نفسه، ص ٢٣.

١٨ المصدر نفسه، ص ٣٢.

١٩ المصدر نفسه، ص ٢٣.

٢٠ المصدر نفسه، ص ٥٣.

٢١ المصدر نفسه، ص ٥٣.

٢٢ الكيلاني، نجيب، عمر يظهر في

القدس، ص ٨٣-٨٤.

٢٣ المصدر نفسه، ص ١٢١.

٢٤ المصدر نفسه، ص ١٢٣-١٢٤.

٢٥ المصدر نفسه، ص ١٢٤.

٢٦ المصدر نفسه، ص ٨٦.

٢٧ المصدر نفسه، ص ٨٥.

٢٨ المصدر نفسه، ص ٢١.

٢٩ شرشار، عبد القادر، بناء الآخر

في أدبيات الصراع العربي /

الإسرائيلي، مجلة الموقف الأدبي،

منشورات اتحاد الكتاب العرب،

دمشق، العدد ٣٧٠، سبتمبر ٢٠٠٢.

عنوان الموقع: www.awu-dam.org/mokifadaby370/

org/mokifadaby370/

htm.001-mokif370

٣٠ المصدر نفسه، ص ٠٧.

٣١ المصدر نفسه، ص ١٤٨.

٣٢ المصدر نفسه، ص ٨٩.

٣٣ المصدر نفسه، ص ١٢٤.

٣٤ المصدر نفسه، ص ١٦٥.

٣٥ المصدر نفسه، ص ٢٥.